رأفت عبد الحميد
مشكاة الآداب التي انطفأت

اسحق عبيد

مصر

في الخامس والعشرين من يونيو الماضي انتقل إلي جوار ربه الأستاذ الدكتور رأفـــت عـــبد الحميد محمد عميد كلية الآداب جامعة عين شمس وأستاذ تاريخ العصور الوســـطي المرموق بها. وأصيب الأهل والخلان والمريدون في كل الأروقة العلمية بما يشـــبه الذهـــول من هول الصدمة، فلقد رحل هذا العالم النبيل دون وداع فجأة، إذ كان حـــتى لـــيلة رحيله يعمل في بيته الصغير وحبه الأول والأخير – كلية الآداب – حتى الـــرابعة بعـــد الظهر، دون كلل أو ملل، رغم أننا كنا نتوسل إليه دوماً أن يرفق بنفسه ويـــأخذ فســـحة مـــن التقاط الأنفاس، ولكنها همة ابن النيل الأصيل الذي يضع الواجب والصـــالح العام فوق كل اعتبار، ويغالب الإرهاق والعرق بضمير لا يعرف الكسل أو التراخـــي، وكنت كلما عاتبته علي ذلك يذكرني برؤية العلامة عبد الرحمن بن خلدون بـــأن للبشـــر أعمارا كأعمار الأمم والحضارات، وإن هي طالت أو قصرت "فلكل أجل كتاب".

كـــان رأفـــت عـــبد الحمـــيد قدوة حسنة ليس فقط لتلاميذه ومريديه وإنما لكل زملائـــه والعامليـــن معـــه علي مختلف المستويات العلمية والإدارية، ولا نتحدث عن تواضـــعه الجـــم وعفـــة لسانه، ونظافة القلب واليد جميعاً، فهي أمثولة في كل دروب جامعة عين شمس.

لقـــد عرفـــته معـــيداً، فمدرســـاً مساعداً، فأستاذاً، فوكيلاً للكلية، ثم عميداً لها، وطـــوال هذه السلسلة التاريخية الطويلة بقي "صاحبي" ورفيق عمري هوهو، متسقاً مع ذاته، دائم الابتسامة، شديد الإيمان بالله عندما شرف كرسي العمادة به منذ سنوات أربع ازداد تواضـــعاً علي تواضعه، وتعففاً علي تعففه، كل هذا ولم يعرف قلمه السكون، فلقد ظـــل وسط هذا الزحام الإداري يبدع وينتج ليثري المكتبة العربية بفكره وأدبه وفلسفته وأسلوبه الفريد.

تخصـــص د. رأفـــت منذ وقت باكر في الشخصية المصرية وعبقرية مصر، التـــي حافظت علي هويتها وذاتيتها، رغم عوادي الزمن وتحرشات الطامعين، فلم تهتز أرض الكنانة من هجمة ذي القرنين أو حرائق قيصر، وإنما استأنست هذا وذاك، حتى صـــار في الإمكان أن نقول:" في مصر يصبح الفاعل مفعولاً به،". ولا غرابة في هذا، فـــأرض الـــنهر الخـــالد هي فجر الضمير، وساحة الحضارة، وهي من قبل ومن بعد الـــبوتقة التـــي تنصـهر بداخلها كل التيارات الوافدة من شرق أو غرب أو من شمال أو جنوب!

موسوعة حضارية تاريخية

ومـــن يقلـــب في مؤلفات رأفت عبد الحميد يجد نفسه أمام موسوعة حضارية تاريخـــية، تضم بين دفتيها: عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، أثينا وروما، مدرسة الإســـكندرية، بيزنطة ومدينة مدائنها القسطنطينية، ومن خلال هذا وذاك نلتقي بشوامخ الفكـــر والفلســـفة فـــي العالم القديم ثم العصر الوسيط، وهم عمد الحضارة في تقديره الواعـــي، جنباً إلي جنب مع أهل السياسة والحكم، وفي هذا السجل الحافل نلتقي وجهاً لوجـــه مـــع عمالقـــة العالمين القديم والوسيط. ولرأفت عبد الحميد موهبة فذة في رسم صـــور شخصـــياته، فهـــو أقرب إلي الفنان التشكيلي في إبراز ملامح أبطال رواياته: فهنالك قيصر، وأوكتافيان، وكليوباترا، وقسطنطين الكبير، وجوليان المرتد، وجستنيان، وهـــرقل، جنـــباً إلي جنب مع الأسقف أثاناسيوس بطل مجمع نيقيا اللاهوتي (٣٢٥م). والأنـــبا أنطونـــيوس كوكـــب البرية، وأفلوطين ابن الصعيد معلم الأفلاطونية المحدثة، وأوريجـــانوس ومعلمـــه كلمنت السكندري اللذان صالحا بين الفلسفة واللاهوت، وجعلا مـــن مدرسة الإسكندرية منارة للفكر والاستنارة في كل ربوع البحر الأبيض المتوسط، وقبل كل هذا وذاك هناك إيزيس أم الصابرين التي نهلت من منابعها أفروديت وعشتار والأم العظمي (Mater Magna) لحضارات الشرق والغرب جميعاً!

جائزة أحسن كتاب في الفكر

وفـــي معرض الكتاب الدولي لسنة ٢٠٠١م فاز كتاب الأستاذ الدكتور رأفت عـــبد الحمـــيد بعـــنوان "الفكر المصري في العصر المسيحي" بجائزة أحسن كتاب في

الفكـــر، وكرمـــته الأمة المصرية في شخص رئيسها محمد حسنى مبارك في احتفالية معرض القاهرة للكتاب في حفل مهيب جمع صفوة مثقفي ومفكري هذه الأمة المباركة.

وقـــد كـــان لي مع صديقي د. فاروق القاضي، والأستاذة الدكتورة مني مكرم عبـــيد، والأســـتاذ الدكتور ميلاد حنا شرف مناقشة محتوي هذا الكتاب الفذ في سراي الســـادس من أكتوبر، ضمن فعاليات هذا المهرجان الثقافي العظيم، وكان يوماً تاريخياً بمعنـــي الكلمـــة، حيـــث المداخـــلات والتعقيبات، ولكأننا كنا في "مأدبة أفلاطونية" أو "ســـمبوزيوم" كما يقول أهل المعرفة، وكان نجم الجلسة المتألق صاحب الكتاب: رأفت عبد الحميد نفسه.

وكـــان رأفـــت عبد الحميد – عاشقاً للتراث العربي الإسلامي، ولا غرابة في ذلـــك فهو ابن لعالم جليل من علماء الأزهر الشريف هو المغفور له الشيخ عبد الحميد البسطويســـي، وكـــان الجمـــيع يرجعون إليه لأخذ رأيه في الثقات من المؤرخين، من الطـــبري إلـــي ابـــن الأثـــير، إلي ابن خلدون، إلي المقريزي، وصولاً إلي الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في العصر الحديث.

ومع أنه كان متخصصا في تاريخ العصور الوسطي، والعصر البيزنطي علي وجـــه التحديد (٣٣٠ – ١٤٥٣م)، إلا أن رؤيته للتاريخ كانت رؤية المؤرخ الفيلسوف الـــذي يـــنظر، إلي التاريخ العالمي نظرة شمولية (جشتالت Gestalt)، بحيث لا تفهم الإقليمـــية أو المحلـــية إلا مـــن خـــلال الإطلالـــة الأوسع علي خريطة العالم الكبرى، والـــتحول مـــن عصـــر إلـــي عصر عند المؤرخ رأفت عبد الحميد لا تحدده الأحداث السياســـية الكـــبرى بقـــدر ما ترسم معالمه الأفكار والفلسفات السائدة، وعلي هذا فإن تواريـــخ الفقيد الجليل تواريخ في الحضارة وليست أرشيفاً لمزمنات أو حوليات أو أسر حاكمة أو دويلات تسقط وأخري تقوم!

رؤية موسوعية

ومـــن واقـــع هـــذه الرؤية الموسوعية جاء اختيار د. رأفت عبد الحميد – إلي جانـــب عمـــادة كلية الآداب جامعة عين شمس – مديراً لمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعـــة عين شمس، ومديراً لمركز الحضارات المعاصرة بجامعة عين شمس أيضاً،

وعضـــواً بلجـــنة الـــتاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضواً باتحاد المؤرخين العرب، وعضـــواً بالجمعـــية المصرية للدراسات التاريخية، وأميناً عاماً لسمنار التاريخ الوسيط والإسلامي بجامعة عين شمس، ورغم كل هذه الأعباء التي لا يطيقها إلا الأبطال، فإنه مـــا كـــان يـــتأخر دقيقة واحدة عن مواعيده ومسئولياته، وإني أعلم عن قرب أنه كان يقضـي معظم أيام الدراسة في جنبات كلية الآداب لا يهدأ.

ومـــريدوه ينتشـــرون فـــي كـــل ربع من ربوع الدلتا وفي كل نجع من نجوع الصـــعيد، فله العشرات بل المئات من التلاميذ الأوفياء، من خلال إشرافه العلمي علي رســـائلهم فـــي الماجســـتير والدكتوراه، وهم الآن أعضاء لهيئات التدريس في مختلف جامعات مصر من أسوان إلي الإسكندرية.

وللعـــالم الفقـــيد عشرات من المؤلفات والبحوث التي عالجت أهم القضايا في الـــتاريخ البيزنطـــي ومصادره، وفي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، وفي ملامح الشخصية المصرية عبر العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية.

ونذكر هنا بعض هذه المؤلفات علي سبيل المثال لا الحصر:

- الدولة والكنيسة، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤.
- العالم البيزنطي (ج.هسي) ترجمة وتعليق، القاهرة ١٩٨٢.
- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب، القاهرة ١٩٨٣.
- السمو البابوي بين النظرية والتطبيق، القاهرة ١٩٨٥.
- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسية، القاهرة ١٩٩٧.
- الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة ٢٠٠٠/٢٠٠١.

لقـــد كـــان علم رأفت عبد الحميد بريئاً من الجهل، وكان مسلكه عرياً من الرياء، وكان قوله موشحاً بالصواب، وكانت حاله دائرة مع الحق.

كانـــت غايـــة رفـــيق عمري في هذه الدار العاجلة معقودة بالأمثل فالأمثل، وكان طـــوال عمـــره مزدانا بثوب العفة والعصمة، ولم يكن صاحبي ممن سها عن باطن ما لـــربه علـــيه بظاهر ما له عنده، ولهذا فإن الله سبحانه وتعالي قد أخذ بيده، وآواه إلي كنف نعمته، ونقله حميداً إلي منازل رحمته.